الفكاهة في شعر ابراهيم ناجي

على الرغم مما عُرف عن الشاعر الطبيب إبراهيم ناجي من خفة الظل وجمال الروح ، فإن ديوانه المطبوع لم يحفظ لنا نوادره وفكاهاته الشعرية إلا بقدر يسير لا يتفق وما كان يرويه عنه مخالطوه من خفة الروح التي كانت تبلغ أحيانا حدّا لا يصل إليه الا القليلون حيث كان يتندر بنفسه وقد شاعت عنه قصة كان يرويها في مجالسه ، خلاصتها أن أحد مرضاه كان رجلاً فقيراً أزرى به البؤس وأنهك جسده المرض ، وكانت زوجته ترافقه إلى عيادة الدكتور إبراهيم ناجي ، وبعد أن كشف الطبيب ، أدرك بفطنته وعلمه أن مريضه لا يشتكي إلا الجوع الشديد فانتحى بزوجة الرجل جانباً وأخرج لها من جيبه مبلغاً لا بأس به من المال وأعطاها إياه ونصحها بأن تشتري لزوجها منه لحماً ودجاجاً وأن تعتني بطعامه وتصادف أن رأى تلك السيدة بعد حين في أحد الشوارع فناداها وسألها عما فعلت بالمبلغ ، فقالت له في براءة إنها أخذت المبلغ وأخذت زوجها وذهبت به إلى طبيب آخر (يفهم في الطب) على حد قولها . إلى آخر تلك النوادر التي كان ناجي يقصها لجلسائه .

وأول ما يطالعنا من فكاهاته الشعرية تلك المعركة التي دارت بينه وبين الشاعر محمود غنيم ، فقد كانا مدعوين في حفل أقامه الوزير الأديب دسوقي باشا أباظه ، وكان من شروط الحفل - كما اشترط الداعي - ارتداء " الردنجوت " وهو البدلة الرسمية التي تلائم المناسبات الرسمية . وحدث أن ذهب محمود غنيم بلباسه

العادي ، فعاتبه دسوقي باشا أباظه لعدم ارتدائه الردنجوت - فقال غنيم إنه لا يملك الردنجوت لأنه فقير ، وما كان ليستعيره كما فعل ابراهيم ناجي وكثير من الحاضرين . فهاهم أولاء يجلسون وقد تخبطوا في لباسهم لأنها ملابس مستعارة لا تلائمهم طولاً وقصراً كما قال غنيم :

الردنجوت ياجناب الوزير ... ليس يقوى عليه جيب الفقير
رمت أن أستعيره مثل "ناجي" ... ثم أحجمت خوف مَنِّ المعير
كم رأيت القصير فوق طويل ... ورأيت الطويل فوق قصير
لستُ أرضى بثوب غيري وإن همْ ... نسجوه من سندس وحرير

ولم يكن ابراهيم ناجي ليسكت بعد أن أضحك غنيم عليه المجلس ، فنظم قصيدة طويلة في هذه المناسبة بدأها بمدح الوزير الأديب دسوقي أباظة باشا فقال

دعوت فلبينا ودارُك كعبةٌ ... بها انعقد الإخلاصُ والحبُّ طُوَّفا
خميلتُنا تهفو إليها قلوبُنا ... وأي فؤادٍ للخميلة ما هفا
بنوك الألى تحنو عليهم تعطفا ... وترعاهم . براً بهم متلطفا
إذا خلعوا بعض الوفاء فسعهم ... فمثلك عن مثل الذي صنعوا عفا

وبعد أن يتحدث ناجي عن ندوة أباظة وما تفيض به من كرم وأريحية وما يجده الشعراء فيها من راح وروح وطعام وشراب ، ينتقل إلى أصدقاء الندوة فيسأل إن كان فيهم من يستطيع أن ينقل للآخرين أخبار واقعة الردنجوت التي دارت بين ناجي وغنيم :

فيا ندوة السمار هل من مسجل ... يدوّن إعجاز القرائح منصفا
ليشهد أن الشعر شيء مشى بنا ... مع الطبع جل الطبع أن يتكلفا
وفي دمنا يجري به متواصلا ... مع النَّفَس الجاري وينساب مرهفا
فهل ناقل عني الغداة وناشر ... مقالة صدق قد أبت أن تحرّفا
حديث غنيم والردنجوت والذي ... جرى بيننا ما كنت بالحق مرجفا

ويحكي ابراهيم ناجي كيف رأى محمود غنيم أمام أطباق المائدة المتجاورة وقد دارت رأسه ، واستبدت به الحيرة ، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة مستنجداً بمن يجاورونه عسى أن يسعفوه ، فهو لا يدري ما طبيعة اللحم الذي أمامه ، أهو لحم ديوك أم لحم خراف ؟ وما إن رأى إبراهيم ناجي قريباً منه حتى أرسل إليه نظرة مستغيث حائر يسأله أن ينتشله من هوة الارتباك حتى يعرف ما الذي أمامه ؟ ففهم ناجي الإشارة وتقدم بشهامة ليقدم كلاً منهما للآخر : يا أيها الديك هذا أخونا محمود غنيم ، ويا غنيم هذا ديك يؤكل فتبادلا النظر ولم يتعرف أحدهما إلى الآخر إلا بعد جهد جهيد .

بصُرت به والصحن بالصحن يلتقي ... فلم أر أبهى من غنيم وأظرفا
تراءى له لحم فلم يدر عنده ... تَدَيَّك من بعد الطوى أم تَخَرَّفا
وأومأ لي باللحظ يسألني به ... أتعرفه ؟ أومأتُ باللحظ مسعفا
وقدمته للديك وهو كأنما ... يطير إليه واثبا متلهفا
غنيم ! أخونا الديك! قَدَّمْتُ ذا لذا ... فهذا لهذا بعد لأيٍ تعرفا

وما إن تعارف المتناكران : غنيم والديك ، حتى أخذا بأسباب المودة وتبادلا الغزل العفيف ، فارتفعت بينهما الكلفة . وما هي إلا لحظات فإذا بغنيم يصرع الديك ويمزقه إرباً إرباً بأسنان لا تعرف للرحمة اسماً ، فأصبح الديك بين تلك الأسنان العتيقة نسيا منسياً :

وما هي إلا لحظة وتغازلا ... وقد رفعا بعد السلام التكلفا

فمال على الورك الشهي مُمَزِّقَا ... ومال على الصدر النظيف منظِّفا

جزى الله أسناناً هناك عتيقة ... ظللن على الصحن الأباظي عكفا

ثم ينتقل إبراهيم ناجي إلى حديث الردنجوت فيخاطب صديقه غنيما فيقول : إنك تعيّر ناجي بأنه استعار معطف الردنجوت ، فلِمَ لَمْ تستعر أنت واحداً مثله ؟ إن سبب عدم استعارتك مفهوم وهو أنك لا تفهم كيف يرتديه من يرتدونه ولو أن أحداً أعارك إياه لتحيرت لا تدري كيف تلبسه ولم تعلم له ظاهراً من باطن ولا وجهاً من قفا وما ذاك إلا لما فيك من سذاجة و(عَبَط) :

تُعير ناجي بالردنجوت جاءه ... معاراً فغامر واستعر أنت معطفا

وأُقسم لو أن الردنجوت نلته ... وجاد به من جاد كرها وسلّفا

لقلبته ظهراً لبطن محيرا ... به تحسبن الوجه من عَبَط قفا

ويعود ناجي بعد ذلك إلى نهم صديقه غنيم وجوعه ، وما يلم به حين يرى العدس الأباظي الشهير وقد جيء به إلى المائدة ، فإذا هو ينتفض انتفاضة المصاب

بالحمى إذا بشروه بالشفاء ، وما إن يستوي الطبق أمامه حتى ينهال عليه ولا يتركه إلا قاعاً صفصفا :

رأيتك والعدس الأباظي قادم ... كما انتفض المحموم بُشِّرَ بالشفا

وناهيك بالعدس الأباظي منظرا ... عظيما كما هيأت للعين متحفا

على أنه ما جاء حتى رأيته ... توارى كطيف لاح في الحلم واختفى

فلله من لفظ ببطنك راسب ... قرير ومعناه برأسك قد طفا

وعلى غرار ما كان يفعل الشعراء القدامى حين يقولون (قفا نبكِ) - فقد كان لكل شاعر عربي رفيقان لا يفارقانه ، أحدهما خادمه ، والثاني راويته - ينادي إبراهيم ناجي رفيقيه ليقفا معه حتى يبكي الثلاثة إذا شاءوا البكاء ، أو يضحكوا إذا شاءوا الضحك من منظر صاحبهم غنيم العجيب الذي تتراءى له صحاف العدس كأنهن غيد يغازلهن بعينيه فإذا أقبلت إليه واحدة منهن أنكرته وتساءلت من يكون ؟ مع أن ما به من جوع وشوق إليها لا يخفى على أحد (وهنا يُضمِّن إبراهيم ناجي البيت الشهير لأبي فراس الحمداني :

تسائلني من أنت وهي عليمة ... وهل بفتى مثلي - على حاله - نُكْرُ؟

مع تعديل طفيف فيقول ناجي :

قفا نبك أو نضحك على أي حالة ... قفا صاحبي اليوم من عجب قفا

كأن صحاف الدار في عين صاحبي ... غوان كستهن المحاسن مطرفا

أشار لإحداهن إذ برزت له ... وناجته عن بعد وأبدت تعطفا

" تسائلني من أنت وهي عليمة " وهل بفتى مثلي على حاله خفا؟

سأخبرها من أنت! انك شاعر قنوع إذا ما الخبر جاء تفلسفا

ومن أنت حتى ترفض النعمة التي أُتيحت وتأبى مثلها متقشفا

فتى حاله غلبٌ وآخره الطوى وخطته عريٌ ومشروعه الحفا

ومن فكاهات ابراهيم ناجي الشعرية الشهيرة تلك المقطوعة التي هجا فيها صديقا له دميماً ، وصفه بأنه حشرة ، وبأنه - بمنظره المشوه - يعتبر فخراً بداروين الذي قال بأن أصل الإنسان قرد . ويتخيل الشاعر أن أم صاحبه حين ولدته ونظرت إلى وجهه شعرت بأنها ارتكبت جرماً عليها أن تعتذر للبشرية عنه :

رجل أرى بالله أم حَشَرَهْ سبحان من بعبيده حشَرَهْ

يا فخر دارويـنٍ ومذهبه وخلاصة النظرية القذرهْ

يا عبقرياً في شناعته ولدتك أمك وهي معتذرهْ

ويهجو ناجي شاعر سوء من أولئك الذين يرتكبون الشعر دون موهبة فإذا هم ينحتون من الصخر بيوتا لا روح فيها ، فكأن ما ينظمونه حجارة يرجمون الناس بها إذا أنشدوها على مسامعهم . وها هو ذا ناجي يستمع إليه فيبلغ به اليأس مبلغاً عظيماً فيصرخ في وجه صاحبه : كفّ أيها المتشاعر فأنت لا تصلح لأن تكون شاعراً . فشعرك يزهق الأرواح لما فيه من ركاكة وما يسببه من إزعاج فليتك تموت ليستريح الناس :

أيهـــا الحـــي ومـــا ضر الـــورى لـــو كنـــت مُتَّـــا
أوَ شـــعرٌ ذاك ؟ لا بـــل حجـــر ينحـــت نحتـــا
تلقـــم النـــاس وترميـــ ـــهم بـــه فوقـــا وتحتـــا
صـــحت مـــن يـــأسي لمـــا بركيـــك الشـــعر صـــحتاً
آه يـــا قاتـــل يـــا سفـــ ـــاك ! حتـــى أنـــت حتـــى !

وهكذا يبدو أثر ثقافة ناجي في شعره الفكاهي ، فهو طبيب ثقافته علمية ومن ثم فهو يجنح إلى وصف دمامة مهجوه بأنها تطبيق لنظرية داروين ، ويتمنى لمهجوه الآخر الموت . والحياة والموت من المفردات الشائعة في لغة الأطباء لأنها ترتبط بطبيعة عملهم .

أمير الشعراء... المزيف!

في أواسط القرن العشرين، كانت المنتديات الأدبية، والسهرات الثقافية على المقاهي سمة بارزة من سمات الحياة الفكرية في مدينة القاهرة.

وكان جماعة من الشعراء قد اعتادوا في سهراتهم الأدبية أن يتبادلوا الدعابات والمرح، ولا تخلو لياليهم – بين حين و آخر- من متطفلين يفسدون عليهم متعتهم، فإذا بهم يوسعون أولئك المتطفلين هجاءاً وسخرية ونقداً.

وكان من أولئك المتطفلين شويعر خفيف الظل اسمه "حسين أفندي محمد" كان محبَّباً إلى الشعراء لخفة ظله التي تغفر له ركاكة شعره. ولكنه كان شديد الإيمان بأنه شاعر عظيم!! وأنه سيد شعراء عصره ولا فخر ، وقد لقّب نفسه بلقب

"البرنس" وهي بالإيطالية تعني الأمير، وذات ليلة من ليالي شهر رمضان، اقترح الشعراء إقامة حفل لمبايعة البرنس "حسين أفندي محمد" أميراً للشعراء بعد أن مر نحو ربع قرن على وفاة "أحمد شوقي بك" دون أن يخلفه أحد على إمارة الشعر العربي!!

وكان من بين هؤلاء الشعراء: "محمد الأسمر" و"أحمد الكاشف" و"السيد حسن القاياتي" و"محمد الهراوي" و"حسين شفيق المصري" و"كامل كيلاني"...وغيرهم.

وقد قال الشاعر "محمد الأسمر" في تلك الحفلة قصيدة في مبايعة أمير الشعراء البرنس "حسين أفندي" جاء فيها:

يـــا أمـــيرَ الشُّـــعراءْ ... أنـــتَ أوْلَى بـــاللواءْ
سـيدي فلتهنـإِ اليـو ... مَ بمُلْـكِ الأدبـاء
(امـرؤُ القـيس) عـلى بـا ... بـكَ بعـضُ (الأُمَنَـاء)!!
و (أبـو الطيِّـب) في الـدو ... لـةِ بعـضُ الـوزراءْ!!
و (النُّـواسيُّ) و(هـا ... رونُ)معـاً في النُّـدماء؟!
و (المعـريُّ) لَـدى السُّـ ... ـدَّةِ يحبـو للعَـلاء!!

سـيدي رجِّـعْ لتـا شِعْـ ... ـرَكَ، واهتِـف مـا تشـاء
حيـثُ لا تسـمعُكَ الأَر ... ضُ، ولا تُصـغي السـماء
سـيدي مـولايَ يـا مَـوْ ... لَى جميـع الشـعراء

ثَبَّـــــتَ اللهُ لـــــك (العَـــــرْ شَ) وإن كـــــانَ هـــــواءْ!!

وقال الأستاذ "أحمد الكاشف":

إمـارةُ الشـعر خُـذْها يـا حسـينُ فقـد أتـى يبايُعـكَ الإخـوانُ والصُّـحَبُ
وأدرك اللقـب المُضْـنَى سـواكَ بـهِ ليطمـئنَّ إلى غـالي اسـمك اللقـب
يـا مـنْ يُـدَبِّرُ سـلطانًا ومملكـة وليـسَ فيهـا لـهُ بيـتٌ ولا نَشـب
ومـن يُحَيِّيـه اتبـاعٌ وحاشـية وقـد يُقـام لـهُ التمثـال والنُّصُـب
وحسبُكَ اليـوم دار الكتـب عاصـمة لـدولتيك، وإيوانـاً كـما يجـب
مـن لي بسـدتك العليـا أُقَبِّلُهَـا ودون سـدتك الأسـتار والحجـب
هـذا نصيبي مـن الفـوضى ظَفرتُ بـه مـن بعـد مـا خـانني في غيرهـا الأدب
لم يغننـي الجـد في قـول وفي عمـل وقـد لعبتُ عسـى أن ينفـع اللعـب!!

وقال الأستاذ "محمد الهراوي":

إلى العرش فاصعدْ وامض بـالأمر واقطعِ ومُـر، وانـهَ، وامْنح مـا بـدالك، وامنعِ
وصرّفْ أمـور الشـعر في الأمـة التـي تُميتُ رجـال الشـعر فيهـا ولا تَعـي!!
فأنـت أمـير الشـعر غـير منـازع وكـل أمـير غـير شخصـك مُـدّعِ

وقال الأستاذ "السيد حسن القاياتي":

يـا حسـين يـا عزيـزي يـا أميـري يـا أمـير الشـعر في اللـب الغريـر
سـد كـما سـاد صريـر شـد مـا أمَّـرَ الأقـلام في وادي الـزئير

وقال الشاعر" حسين شفيق المصري":

يـا حُمـاةَ القـريضِ حـولَ الـبرنس ... أصـبحَ الشـعرُ دولـةً ذاتَ كُـرْسي
وهـل الحكـم والإمـارة إلا ... لـبرنس يُضـحي بـرأي ويُمسي
يقـرض الشـعر مـثلما يقـرض الفـا ... ر حبـالا قـد تلـت مـن دِمَقْـس
كـان مـن قبلـه القـريض بجلبـا ... ب فأضـحى (ببنطلـون) (وجـرس)
أيهـا الشـاعر الكبـير رضـينا ... ك أمـيراً، فكنـه تفـديك نفسي

وقال الشاعر" كامل كيلاني":

تِـه بالإمـارة لا تعـدل بهـا بـدلاً ... وقـم بأعبائهـا - إن شـئتها - بطـلا
قـد ارتضـاكَ حُمـاةُ الشـعر قاطبـةً ... أمـيرَهُمْ فلـتكنْ في عصرنا مـثلا
عـابوا المقلـد في الأشـعار ينظمهـا ... وأنكـروا أن يـروه نادبـاً طللا
قلنـا "صـدقتم. فهـاتوا مـن روائعكـم ... فجمجمـوا القـول مسرـوقاً ومنـتحلا
قلنـا " أبينـوا، خسـئتم، لا أبـالكم ... وأفصـحوا هبلـتكم أمكـم هَـبَلا
فـأجفلوا، ثـم قـالوا:" مـا لمـثلكم ... أبـداعُنا، فرأينـا جـدهم هـزلا
قـد جَـدَّدَ العصرُ في وزنٍ وفي لغـةٍ ... فلسـت تعـرفُ شـعراً قـال أم زجـلا!!
رطانـةٌ لسـتَ تـدري حـينَ تسـمعُها ... أقـالَ مُحـتَفلا أمْ قـال مُـرتَجلا
فكـن أمـيراً لهـذا العصر مضـطلعاً ... بثقلـهِ واحتمـلْ أعبـاءهُ رجـلا
إن يركـب الجحـشَ شُـعرورٌ لغايتـه ... فـما رأينـاك إلا راكبـاً جمـلا
وإن يكـنْ شـعرُهم مـن سَـخْفهِ بصـلاً ... فـإن شـعرك يحكـي الشـهدَ و العسَـلا

(مُرْ وادع وانه وسل وأعرض لحضهم تمن وارج كذاك النفي قد كملا)

وقال الشاعر الخطاط الشهير "سيد إبراهيم":

من حيثُ إنَّ الفنونَ أضحتْ في مركزٍ تاعسٍ خسيسِ
وصارَ أمرُ القريضِ فَوْضى وليسَ للشعر من رَئيس

****

وحيث إن البرنسَ أهل لذلك المنصبِ الخطيرِ
قد قرر المحتفون جَمْعاً تقليده منصب الأميرِ

****

فيا أميرَ القريض أقدم وبدّل الفنَّ من أساسِه
ومَنْ يُخالف فامنحه عفواً وإن تشأ فلتطح براسهْ

****

واقبل إذا شئتَ بعد هذا إمارة الخطّ مُسْتَقِلاّ
فقد غدا الفنُّ لا يساوي قلامة الظفر أو أقلاّ

****

والشعر في مصر يا أميري مستفعلن فاعل فعول
فكن أميراً على القوافي فالناس ليست لهم عقول

وقال الشاعر" عبد الجواد رمضان ":

دَعتْكَ وقد تَوَافَر طالبُوها وهل يَحوي العُلاَ إلاَّ بَنُوها

أمـــيرُ الشـــعر أنـــتَ وإن تَغـــالَى ... وأسرفَ في الدّعايـــــة مُـــــدَّعُوها
جِيـــاعٌ تـــاجروا باســـم القـــوافي ... وقـــد ربحـــوا الحيـــاةَ و أخْسَرُـــوها
ســـأحمي عَرْشَـــها وأذودُ عنهـــا ... زعـــــانفَ للرذيلـــــة سَـــــخَّروها
وهـــل خُلِقـــتْ جلالتُهـــا لغـــيرِي ... وشِـــــعْرِي أمُّهـــــا وأنـــــا أبُوهـــــا

وقال الشاعر" عزيز بشاي ":

على العرش فاجْلس أو على النجم فاحللِ ... فـــدونك هـــذا منـــزلاً بعـــد منـــزلِ
بلغـــتَ ســـماءَ الشـــعرِ وحـــدك عاليـــاً ... عـــلى النـــاس فـــالبس تاجَـــهُ وتقبَّـــل
وصِرْتَ أمـــير العـــرشِ فـــارفع لـــواءهُ ... على مصرَ- واجلس في الإمـارةِ وانجل
أمـــيرٌ إذا هـــزَّ اليراعـــة أقبلـــتْ ... ملـــوكُ النُّهَـــى تسـعى إليـــك وتجـتلي

وفي نهاية الحفل ألقى أمير الشعراء المزيف قصيدتين اثنتين، وفيما يلي القصيدتان اللتان أنشدهما (البرنس) في هذا الحفل الدُّعابي.

القصيدة الأولى :

عـلى الشـعراء قـد صرتُ الأمـيرا ... وإن كنـــتُ الخَبعْثَنَـــة الصـــغيرَا
أنـــا (المتنبـــي) في نظمـــي ونثـــري ... أقـــول الشـــعر مختـــتلا فخـــورا
وإني للـــــرّئيس بكـــــلِ نـــــادٍ ... أحـــاكي الشـــمس في الـــدنيا ظهـــورا
بـدار الكتـب قـد قضـيت عمـري ... نقـــى الجيـــب أســـتاذاً حصـــورا
تـــلاني الشـــاعر المتنبـــي قـــدما!! ... وجبـــت قريضـــهُ ســـبحاً بحـــورا
لـــوائي قـــد ســـما فـــوق الثريـــا ... لـــه القِـــدح المُعـــلَّى هـــدىً ونـــورا

لـــه القـــدح المعـــلى في المعـــالي ... لـــوائي مـــا بـــدا يســـمو البـــدورا
عـــلى الشـــعراء قـــد صرتُ الأمـــيرا ... عـــلى الشـــعراء قـــد صرتُ الأمـــيرا

القصيدة الثانية :

رجـــال المجـــد دُمْـــتُمْ للمعـــالي ... مَـــدى الأيـــام في تَحســـين حـــالي!!
فـــأنتم ســـادةُ الأدبـــاء طـــراً ... وأنـــتم كالفرائـــد في الجـــمال
فهـــذي حفلتـــي بكـــمُ أقيمـــتْ ... بـــرغم حواســـدي، آلَ العـــوالي
أدام الله ســـــعيكمُ إلينـــــا ... بحـــاء قبـــل مـــيم قبـــل دال؟!
بكـــم نلـــت الإمـــارة في قريضي ... بكـــم جـــزت الأواخـــر والأوالي
لشـــاعركم بـــرنس المجـــد كونـــوا ... لـــه نعـــم الـــثِّمال مـــدى الليـــالي
برنســـكم لكـــالمتنبي شـــعرا ... وفي هـــذي الإمـــارة فهـــو تـــالي
أدام الله عليـــــاكم جميعـــــاً ... لإحيـــــاء المـــــروءة كـــــالخوالي
وأبقـــى أنســـكم في كـــل نـــادٍ ... وأجلســـكم عـــلى الســـبع الطـــوال
وأحيـــاكم حيـــاة لي وعـــزاً ... وأبقـــاكم لنـــا دونَ انفصـــال
وأبقـــاكم طـــوال العصر ... حصـــناً وجاهـــاً لي بَـــدا دونَ الـــزوال
بكـــم تبـــدو المواســـم وهـــي تشـــدو ... رجَـــال المجـــد دمـــتم للمعـــالي